الخليفة العباسي المتوكل بالله (791-808هـ/1388-1405م) يلتمس منه أن يمنحه لقب سلطان [1] في الدولة العثمانية [2].

وبذلك استمرت الخلافة العباسية في القاهرة قرنين ونصف، كان خلالها الخليفة مجرد رمز ديني مسلوب من جميع السلطات الدنيوية التي كانت بيد الملوك الأيوبيين، ومن

الفصل الثالث

السلطان الظاهر بيبرس ومملكة أرمينية الصغرى

(1) يلاحظ أن لفظ سلطان ظهر أول الأمر في أواسط آسيا واستخدمه الغزنويون والسلاجقة، وغيرهم من الأتراك كرمز للسلطة الدينية، ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر أيام الحكم الأيوبي. ينظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص190.

(2) الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 249-250؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص 97.

(3) عبد القادر احمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر (منشورات المكتبة العصرية، بيروت: 1969م)، ص 209-210؛

Fillip , Hitti , History of Arab (No. p. , London: 1960) p. 674.

الفصل الثالث

السلطان الظاهر بيبرس ومملكة أرمينية الصغرى

أولاً: عوامل الاصطدام المملوكي الأرميني

بعد احتلال هولاكو لمدينة دمشق في سنة 658هـ/1260م تلقى أمر استدعائه من قبل شقيقه قوبلاي خان(658-693هـ/1260-1293م) لمواجهة تمر شقيقه الآخر الأمير اريق بوقا، وتحت الحاح هيثوم الأول (623–669هـ / 1226–1270م) ملك أرمينية الصغرى وافق على أن يترك قائده كتبغا، وتحت إمرته عشرة آلاف فارس مغولي لإتمام مشروع احتلال بلاد الشام، وبعد أن أتم كتبغا وحلفاؤه الأرمن احتلال المدن الفلسطينية وقع في اصطدام مع المماليك البحرية في مصر.

والمماليك البحرية هم في الأصل أتراك امتازوا بالشجاعة والقوة، إذ اضطر الأيوبيون إلى الاستعانة بهم في حروبهم وصراعاتهم، وادخلوا في خدمة الأيوبيين في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل[1]، وكانوا يشترون بالأموال ويجعلونهم نواة لجيوشهم في أثناء فترة ضعف الحكم الأيوبي في مصر ظهر من بين هؤلاء جيل جديد من الزعماء استطاعوا أن يستأثروا بمُلك البلاد وفي سنة 648هـ/1250م، وفي أثناء حقبة الغزو المغولي كان السلطان قطز ثالث زعماء المماليك الذين حكموا في القاهرة [2] بعد السلطان المعز أيبك(648-655هـ/1250-1257م) زوج شجر الدر(648-648هـ/1250-1250م)[3] ، وولده علي الملقب بالمنصور(655-657هـ/1257-1259م) [4].

(1) للمزيد من التفاصيل ينظر: المقريزي، الخطط: ج1/ص 236 - 237.

(2) ستانلي لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ترجمة: مكي ظاهر الكعبي (دار منشورات البصرة، البصرة: 1968م)، ص 78 - 80؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة: الياس شاهين (دار التقدم، موسكو: 1986م)، ص 316 - 317.

(3) شجر الدر: هي زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي من أصل أرمني أهداها إياه الخليفة المستعصم بالله، وتمكنت بعد وفاة الملك الصالح، أن تحفظ العرش لولده تورانشاه، ومن ثم تآمرت مع الأمراء المماليك على قتله، وتولتْ زمام الأمور في حكم مصر لمدة ثمانين يوماً، وعدها البعض أول سلاطين الدولة المملوكية، وتزوجت أثناء ذلك من المعز أيبك الذي تولى السلطنة، وتآمرت على قتله في سنة 655هـ/1257م، إلا أنها قتلت بعد عدة أيام من مقتله. للمزيد من التفاصيل ينظر: فايد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص22-23.

(4) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (دار إحياء الكتب، بيروت: 1968م): ج2/ص 38 - 39.

فقد أثار اشتراك الأرمن مع المغول حفيظة المماليك الذين اخذوا على عاتقهم مهمة مواجهة هذا الخطر الداهم، الذي استولى على بلاد الشام، بعد أن اسقط الخلافة العباسية التي كانت تمثل رمز القوة الروحية للعالم الإسلامي، وكانت المواجهة الحقيقية لهذا الخطر بعد أن بدأت التهديدات الأرمينية - المغولية تتجه نحو البلاد المصرية، ومن المؤكد أن هناك عوامل معينة جعلت سلاطين المماليك يعدون ملوك أرمينية الصغرى اكبر عدو للإسلام والمسلمين[1] ويأتي على رأس هذه العوامل عاملان رئيسيان هما :

الأول: تحالف مملكة أرمينية الصغرى مع المغول ضد عدوهم المشترك المتمثل بالخلافة العباسية في بغداد بوجه خاص، والعالم الإسلامي بوجه عام لتحقيق ما فشل الصليبيون في تحقيقه، وهو استعادة بيت المقدس، وإضعاف النفوذ العربي الإسلامي في بلاد الشام.

الثاني: السياسة الاقتصادية التي اتبعها ملوك أرمينية الصغرى ضد المماليك في مص[2].

فعن تحالف مملكة أرمينية الصغرى مع المغول فهو موقف خطير هدد الدولة العربية الإسلامية وترك ردة فعل قوية على المسلمين جميعاً، وهذا ما [3].

أما عن العامل الثاني فهو لا يقل خطورة وأهمية عن العامل الأول في نظر سلاطين المماليك في مصر، إذ أن دولة المماليك منذ بداية حكمها الفعلي الذي أقامته على أساس فكرة السيطرة على النشاط التجاري بين الشرق والغرب، وبالتالي احتكاره لصالحها الخاص، فمن المؤكد أن يثير هذا العمل العدائي حقد وغضب سلاطين المماليك، وحنقهم على أي قوة تحاول أن تجتذب أو تسلب منهم ذلك النشاط التجاري الواسع، الذي يعد أساس البناء الاقتصادي لدولتهم، الأمر الذي يؤثر في وارداتهم الاقتصادية، وبالتالي في قوتهم لمواجهة الأخطار الخارجية بل وحتى في زعزعت سلطتهم الداخلية على البلاد، والذي يمكن ملاحظته أن الزحف المغولي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي أدى إلى عدم الاستقرار، وزعزعت الأمن على الطرق التجارية، مما زاد من مخاوف التجار بسبب تهديد طريق التجارة البرية عبر آسيا إلى البلاد الأوربية، مما أدى إلى انتعاش طرق

(1) شهاب الدين أبو العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف (مطبعة العاصمة، مصر: 1952م)، ص 56.

(2)العبادي، قيام دولة المماليك، ص 230.

(3) للمزيد من التفاصيل ينظر: فتحي سالم حميدي اللهيبي، مملكة أرمينية الصغرى، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب (جامعة الموصل: 2000م) الفصل الثالث .

التجارة عبر البحر الأحمر ومصر، إذ انه الطريق الوحيد الذي لم يقع تحت سيطرة المغول وسطوتهم، ولكن باستقرار دولة مغول فارس أدرك حكامها ما يمكن جنيه من أرباح عن طريق تنشيط التجارة عبر بلادهم[1].

لذلك لجأ المغول الايلخانيين في زمن غازان خان (695 - 704هـ/1295 – 1304م) إلى تأمين طرق التجارة عن طريق مكافحة محاولات السلب والنهب في المنطقة وطرقها التجارية، كما اتخذ إجراء آخر كان له دورا كبيرا في انتعاش طريق تبريز – أرمينية الصغرى إلاّ وهو تخفيض الضرائب والرسوم تشجيعا للتجارة عبر ممالكها بين الشرق والغرب[2].

لقد نتج عن هذه الإجراءات أن أصبح ميناء إياس الواقع في أرمينية الصغرى على ساحل البحر المتوسط من أهم المراكز التجارية النشطة خلال هذه الفترة، ولم يلبث حكام المماليك أن أحسوا بمنافسة مملكة أرمينية الصغرى عن طريق ميناء إياس، وأدركوا الخطط الخبيثة التي يبيتها لهم ملوك الأرمن، ولاسيما بعد أن لجأ هؤلاء إلى إعطاء الامتيازات الخاصة للتجار البنادقة والجنويين، وتخفيض الرسوم والضرائب التي تفرض على السلع والبضائع التي تمر بالمملكة، الأمر الذي شجع تجار جنوة والبندقية وبيزا وغيرها من تجار الغرب الأوربي إلى أن يتوجهوا إلى ميناء إياس لابتياع ما يحتاجون إليه من البضائع الشرقية بدلاً من الموانئ المصرية [3].

فعبر الرحالة الشهير ماركو بولو[4]، الذي قام بزيارة ميناء إياس في نهاية القرن السابع الهجري/نهاية القرن الثالث عشر الميلادي عن دهشته من ذلك النشاط التجاري الضخم في ميناء إياس، ووفرة ما كان فيه من البضائع والتوابل والمنسوجات والأقمشة الحريرية والصوفية الموشاة بالذهب، وغيرها من حاصلات الشرق، كما ذكر انه شاهد التجار من مختلف البلاد قد وفدوا إلى هذا الميناء، ومما زاد في هذا النشاط التجاري لميناء

(1) سعيد عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى (مطبعة الأحد، بيروت: 1977م)، ص 246 - 247.
(2) المرجع نفسه، ص 247.
(3) Lang, Armenia, p. 203 ; Sirape Der Nersessian , The Armenians,(No. p. , Paris : 1977) , p. 47.
(4) رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد (مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: 1977م)، ص 28؛
Lang , Armenia, p.204 ; Kenneth M. Setton, A History of the crusades (No. p. , Pennsylvania, 1955): vol. II/ p.655.

إياس ما سعت إليه مملكة أرمينية الصغرى من محاولات لفرض الحصار الاقتصادي على الدولة المملوكية في مصر، وإصدار المراسيم لمنع تصدير الأخشاب والحديد القادمة من آسيا الصغرى إلى الموانئ المصرية والتي يعتمد عليها المماليك في صناعة السفن الحربية والتجارية، لغرض مساومة المماليك[1])، فضلاً عن محاولة البابوية لفرض حصار اقتصادي على مصر، من خلال منع التجار الأوربيين من المتاجرة مع الموانئ المصرية، وتشجيعهم على التوجه إلى الموانئ الأرمينية[2])، وفي هذه الحالة سوف تكون النتيجة الطبيعية لهذا الإجراء توجه التجارة الأوربية إلى ميناء إياس بدلاً من الموانئ المصرية، فضلاً عن انه ميناء واقع في مملكة نصرانية، فسوف يساهم بدعم المخططات الصليبية، حيث يستطيع التاجر الأوربي عن طريقه شراء بضائع الشرق الضرورية، وبالتالي سوف يحرم هذا الإجراء مصر من الاستفادة من موارد تلك التجارة، وهذا ما سيؤدي بالنتيجة إلى إضعافها.

ومن الأساليب التي لجأت اليها مملكة أرمينية الصغرى لضرب التجارة المملوكية هي عرقلة التجارة البرية بين مصر وآسيا وخير ما يستدل به على ذلك ما ذكره ابن تغري بردي[3]) بان جماعة من التجار قد خرجوا في سنة 666هـ/1267م من بلاد فارس إلى مصر، فلما مروا بمملكة أرمينية الصغرى منعهم الملك هيثوم الأول من العبور بهدف الإضرار بتجارة مصر مع بلاد فارس، وأمام هكذا أعمال عدائية كان لابد أن يكون رد فعل المماليك على الأرمن سريعاً وحازماً، وهذا ما سنوضحه في المباحث التالية.

ثانياً: السلطان الظاهر بيبرس والملك هيثوم الأول

بعد هزيمة المغول في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م وتحرير بلاد الشام من سيطرتهم، وعلى الرغم من الخسائر التي ألحقها المماليك بالأرمن استمرت مملكة أرمينية الصغرى بسياستها العدائية، ومحاولة الإغارة على البلاد الإسلامية المتآخمة لحدودها، فقد أغار جيش الأرمن الذي تحرك من إمارة انطاكيا الصليبية على منطقة الفوعة وسرمين الواقعتان ضمن أعمال حلب في سنة 660هـ/1261م، وقام بعمليات السلب والنهب، إلاّ أن

(1) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس (مطبعة مصر، القاهرة: د.ت.)، ص 103؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية: ج3، ص 535.

(2) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية (مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة: 1957م)، ص 85؛ اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب ، ص 233.

(3)النجوم الزاهرة: ج7 /ص 181.

الأمير عزالدين ايدمر نائب السلطنة بحلب اعد القوات الحلبية، ونجح في صد هذه الغارة، واخذ عدداً كبيراً من الأسرى، فأرسلهم إلى حضرة السلطان الظاهر بيبرس في مصر[1].

أعاد الملك هيثوم الأول الكرة ولم يعتبر من محاولاته الفاشلة والخسائر التي مني بها سابقاً، فجمع جيشه في العشرة الأولى من صفر سنة 661هـ/1262م، وأغار على أعمال حلب مرة ثانية حتى وصل العمق والمعرة والفوعة وسرمين، فاسر من الفوعة ثلاثمائة رجل، وأغار على سرمين وكان بها كل من الأمراء بهاء الدين الحموي وركن الدين السروي وعلم الدين قيصر الظاهري، وكانوا مجردين من السلاح، فانحازوا إلى دار الدعوة في سرمين، وانضم إليهم عددا كبيرا من أهلها، فركب الأمير ركن الدين السروي ومعه الأمراء المذكورين، وفتحوا باب الدعوة، والتقى الفريقان، وأصيب الملك هيثوم في هذه المعركة بجراح، مما كان له الأثر في إضعاف عزيمة رجاله بعد إن تكبدوا خسائر جسيمة، وأطلقوا سراح من كان بأسرهم من أهل سرمين والفوعة[2]، وفي سنة 662هـ/1263م جمع الملك هيثوم الأول قواته، وسار إلى مدينة هرقلة، فخرجت القوات المملوكية من قلعة الجبل إلى حمص وحماة، فقاموا بهجوم مفاجئ على معسكر الأرمن، وتم قتل من قتل من القوات الأرمينية، ولاذ الباقون بالفرار يطلبون نجدة المغول الموجودين في بلاد سلاجقة الروم، البالغ عددهم سبعمائة فارس، فسار هؤلاء لنجدة الأرمن، إلاّ أن سوء الأحوال المناخية وتساقط الأمطار والثلوج وانقطاع الميرة أدى إلى هلاك عدد منهم، فاضطر الباقون إلى الانسحاب بعد أن توغلوا حتى حارم[3].

قرر الملك هيثوم الأول في جمادى الآخر من السنة ذاتها مهاجمة بلاد الشام فاعد ألف قباء مغولي وألف سراقوج[4] البسها لجنوده ليوهم السكان أنهم نجدة مغولية للأرمن، ولما بلغ ذلك السلطان الظاهر بيبرس أمر نائب السلطنة في دمشق بالخروج بقواته إلى

(1)اليونيني، ذيل مرآة الزمان (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1954): ج1 / ص 496؛ ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور (مطبعة عيسى البابي، القاهرة، 1971م): ج8 / ق1 / ص 90؛ المقريزي، السلوك: ج1 / ق2 / ص 476.

(2)اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ج1/ ص 531؛ ابن أيبك، كنز الدرر: ج8 / ق1 / ص94 - 95.

(3)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر (د.م، الرياض، 1976م)، ص 196؛ المقريزي، السلوك:ج1/ ق2 / ص 510.

(4) القباء: هو ملابس العسكر المغول والسراقوج هو قلنسوة تترية وتجمع على سراقوجات. ينظر: المقريزي، السلوك، ج1/ ق2/ ص511.

حمص[1] وخرجت معه قوات حماة وصدر أمر السلطنة بعدم خروج العربان إلى البرية في تلك السنة وتوالت الغارات المملوكية من كل جهة على معسكر الأرمن فولوا منهزمين[2].

ويلاحظ أن الأرمن وتخوفا من حدوث تغييرات في علاقتهم بالمغول في أعقاب وفاة هولاكو سنة 663هـ/1264م، ورغبة منهم في تخفيف حدة العداء مع المماليك أرسل ملكهم رسولا عنهم يخبر السلطان الظاهر بيبرس بوفاة هولاكو[3]، إلاّ أن الظاهر لم ينسَ مواقف الأرمن المعادية ومحاولاتهم الفاشلة مع المغول لاحتلال بلاد الشام لذلك قرر السلطان توجيه حملة عسكرية تأديبية إلى أرمينية الصغرى[4]، وعندما شعر الأرمن بذلك بادروا بإرسال رسلهم إلى الظاهر بيبرس بغية ثنيه عن غزو بلادهم، غير انه رفض طلبهم، إلاّ إذا تخلوا عن المواقع التي سبق، وان احتلوها من البلاد الشامية، وان يدفعوا الجزية، ويفتحوا طرق التجارة بين أرمينية الصغرى وبلاد الشام حتى يتمكن التجار من شراء البضائع من الحنطة والشعير من الأراضي الأرمينية. كما طلب منه أن يرسل رعاياه إلى الشام ليتاجروا فيها[5]، ولما كان الملك هيثوم الأول معتمداً على خانات المغول في إبداء المساعدة له، ويعدّ نفسه من إتباعهم رفض هذا العرض لأنه لا يتوافق مع رغبات المغول، وعليه فما كان من السلطان الظاهر، إلاّ أن أمر بشن هجوماً على أرمينية الصغرى في الثالث من شهر ذي القعدة سنة 664هـ / 1265م، ولا تزال إخبار هذه الحملة منقوشة على ضريح القائد العربي المسلم خالد بن الوليد في مدينة حمص[6].

غادر الملك هيثوم الأول بلاده قبيل وقوع الهجوم المملوكي، وتوجه إلى بلاد المغول لمقابلة أبقا خان المقيم في تبريز لطلب العون والمساعدة منهم بعد أن امتنع أمراء عسكر المغول المقيمين في آسيا الصغرى من دعمه بحجة أنهم لم يتلقوا الأوامر من أبقا خان بهذا

(1) علاء محمود خليل قداوي، التحالف المغولي الأرميني الصليبي لاحتلال مصر وبلاد الشام، بحث منشور في مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة (المغرب: 1999م): ع10/ص 19.
(2) المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص511.
(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ج2/ص 322؛ الكتبي، عيون التواريخ: ج2 /ص320.
(4) ابن أيبك، كنز الدرر: ج8/ق1/ص 118؛ اليونيني، المصدر نفسه: ج2/ص 344؛ الكتبي، المصدر: ج2/ص337.

(5) أبو الفرج غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، تاريخ الدول السرياني، منشور في مجلة المشرق: ع51/1956/ص 145؛ عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص 91.
(6) محمد أبي الفرج العس، أخشاب من تربة خالد بن الوليد، بحث منشور في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، 1969م: م19/ص 17.

الشأن،وقبل أن يتلقى الرد على طلبه هجمت القوات المملوكية التي كان يقودها السلطان المنصور صاحب حماة وشقيقه الأفضل[1]، ومعهم الأمير عز الدين يوغان المعروف بسم الموت[2] والأمير سيف الدين قلاوون.

وقعت المعركة الحاسمة بغياب الملك هيثوم الأول، وقتل المماليك فيها ابن الملك هيثوم وشقيقه وهما توروس والكند سطبل سمباد، كما اسروا ابنه الآخر ليفون الثالث وابن عمه مع عدد كبير من القتلى والأسرى، ونهبت كل من مدينة المصيصة وادنة وطرسوس وإياس ومدن أخرى، وعدد من القلاع كما دمرت العاصمة الملكية سيس واحرق ما فيها من خزائن[3]، كما تم فتح قلعة العمودين[4].

استمرت القوات المملوكية في اجتياح مملكة أرمينية الصغرى مدة عشرين يوما، ثم عادت الجيوش المملوكية إلى بلاد الشام بعد ان حصلوا على كميات كبيرة من الغنائم حتى بيع رأس البقرة بدرهمين ولم يجد من يشتريه[5]، كما قدرت المصادر التاريخية عدد الأسرى بحوالي أربعين ألف أسير[6]، وقد استقبل السلطان الظاهر بيبرس الجيش العائد من الغزوة في 2 من ذي الحجة سنة 664هـ/1265م[7] باحتفال مهيب، وعندما عاد الملك هيثوم الأول إلى بلاده وجد أن الخراب قد عمها ثانية، فعاد إلى بلاط المغول لكي يأتي بجيش لمساعدته، وبعد مشقة بالغة استطاع تكوين جيشاً من المغول والسلاجقة وبقايا الأرمن وعاد

(1)ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق اللبنانية 1956: ع51/ص 145؛ رنسيمان، تاريخ الحروب، ج، تاريخ الحروب الصليبية: ج3/ص 553؛
Stevenson, The Crusaders in the east,p.333;Sanjian, Armenian Communities, p. 15.

(2)العيني، عقد الجمان: ج1/ص 422.

(3)عاشور، الظاهر بيبرس، ص 103 - 104؛
Lang, Armenia, p. 207; Fatima Syedon, Baybars I of Egypt (The Paramount Press-Pakispan, 1965) , p. 56

(4) سيد علي الحريري، الاخبار السنية في الحروب الصليبية، ط2 (مطبعة النيل، مصر: 1911م)،ص369؛ فايد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك، ص 91.

(5) المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص552؛ العيني، عقد الجمان: ج1/ص423.

(6) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص 104؛ قدري قلعجي، صلاح الدين (دار العلم للملايين، بيروت: 1947م)، ص 558.

(7) ابن أيبك، كنز الدرر: ج8 /ق1/ص 118؛ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص 104؛ عبد السلام عبد العزيز فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران (دار المعارف، القاهرة: 1981م)، ص 158؛
Stevenson, The Crusaders in the east, p. 370 .

بهم إلى أرمينية الصغرى، إلاّ أن هؤلاء لم يقدموا له العون لأنهم انشغلوا بنهب ما تركه المصريين [1].

قصمت الضربة المملوكية هذه ظهر مملكة أرمينية الصغرى، بحيث أن الملك هيثوم الأول نفسه غدا عاجزاً عن حماية مملكته أو القيام بأي عمل عسكري، فاستسلم للحزن وأذعن للسلطان الظاهر، وشرع يفاوضه ملتمساً منه إطلاق سراح ولده الأسير، ويعده ببذل الأموال والقلاع والحصون، فوافق السلطان الظاهر على إطلاق سراح ولده مقابل شروط يقوم الملك هيثوم بتنفيذها، منها إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر، الذي اسر في قلعة حلب من قبل المغول، والتنازل عن المدن والقلاع التي تتحكم في الطريق التجاري الذي يربط أرمينية الصغرى بالعراق والشام.

توجه الملك هيثوم الأول إلى تبريز عاصمة مغول فارس حيث بلاط ابقا خان بن هولاكو طالبا منه وهو ينوح بين يديه ان يمنحه الأمير سنقر الأشقر، لاستبداله بولده ليفون، فشعر أبقا بالعطف ورقت له مشاعره، خاصة وان الملك هيثوم الأول كان طاعنا في السن، فوعده بإطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر، وعندما حاول هيثوم الأول خداع السلطان الظاهر والتملص من وعوده له ببذل المال والتنازل عن القلاع والحصون، حيث اخبر السلطان الظاهر بأنه وجد سنقر الأشقر وحاول إطلاق سراحه، لكن دون جدوى فكتب إليه السلطان كتابا قال فيه ((إذ كنت تقسوا على ولدك وولي عهدك، فانا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب، ويكون الرجوع منك لا مني، ونحن خلف كتابنا هذا، فمهما شئت فافعل بسنقر الأشقر)) [2]، وصل الكتاب إلى الملك هيثوم الأول فشعر انه سيفقد ولده في حالة عدم إطلاق سراح سنقر الأشقر وقد يقود عدم إطلاقه أيضاً إلى تعرض بلاده للدمار والتخريب ثانية من جراء ما قد يقوم به المماليك من مهاجمتهم لذلك اضطر إلى تنفيذ ما سبق أن اتفق عليه الطرفان.

ثالثاً: هيثوم الأول وهدنة 666هـ/1267م

توجه الملك هيثوم الأول إلى تبريز عاصمة المغول الايلخانيين في بلاد فارس، حيث استجاب أبقا خان لطلبه بإطلاق سراح سنقر الأشقر، وتم عقد الصلح مع السلطان الظاهر بيبرس

(1) ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق اللبنانية، 1956م: ع51/ص 147.
(2) المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص 569.

وفق الهدنة التي كتبت في أنطاكيا سنة 666هـ/1267م وكان أمدها عشرة سنوات[1] وتتضمن العديد من البنود التي أذلت الملك هيثوم الأول وهي:

1- إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر الذي أسره المغول عند احتلالهم لقلعة حلب مقابل إطلاق سراح ليفون بن هيثوم[2].

2- يتنازل الملك هيثوم الأول بموجب هذه الهدنة عن القلاع والحصون في جبال الامانوس، وهي دربساك وبهسنى ورعبان ومرزبان وشيخ حديد بحاصلاتها[3]، للسلطان الظاهر وعلى طول الحد الشامي[4]، على أن يصبح نهر جيحان حداً طبيعياً فاصلاً بين الممالك الإسلامية وبلاد الأرمن[5].

3- أن يحضر أفراد من أعيان الأرمن كرهائن لدى السلطان الظاهر حتى يتم تسليم القلاع المتفق عليها بموجب الهدنة.

4- أن يؤدي ملك الأرمن وولده ليفون الثالث اليمين ويحلف بعدم التعرض للبلاد الإسلامية المجاورة.

5- يلتزم الملك هيثوم الأول بدفع الجزية التي فرضها عليه السلطان الظاهر، فضلا عن مبالغ من الأموال[6].

6- إرسال هدايا قررت على الملك هيثوم إلى السلطان الظاهر وان لا يتم قطعها طيلة فترة الهدنة.

7- لا يجدد بناء ولا تحصن قلعة في مملكة أرمينية الصغرى.

8- أن يطالع الملك هيثوم الأول المسلمين بكل ما يحدث من أمور[7].

---

(1)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 333.

(2)رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية: ج3/ص 569.

(3)ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج4/ص 313؛ المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص 568؛
Stevenson, The Crusaders in the east, p. 341

(4)Setton, A History of the crusades: vol. II/ p. 654

(5) الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: 1963م): ج1/ص 74.

(6)ابي الفضل عبد الرزاق ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحقيق: مصطفة جواد (مطبعة الفرات، بغداد: 1951)، ص 355؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك (دار المحامي للطباعة، القاهرة: 1965م): م 8/ج 4/ق2/ص 109؛
Abdul Aziz Khowaiter, Baibars the First (The Green Mountain Press , London: 1978), p. 57.

(7)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 432 .

9- يتعهد الملك هيثوم الأول بعدم التعرض للقوافل والتجار بأي أذى.

10- كما يتعهد الملك هيثوم بعدم محالفة المغول والصليبيين ضد المسلمين[1].

بعد أن تم توقيع الهدنة أدى الملك هيثوم القسم في أنطاكيا، وحلف في 27 رمضان سنة 666هـ/1267م، وحلف بعده ولده ليفون الثالث في شهر شوال من السنة ذاتها على نفس اليمين وهو مكشوف الرأس، ثم أطلق سراحه، وسمح له السلطان الظاهر بالحج إلى بيت المقدس وبقيت الرهائن في حوزة السلطان الذي قدم لهم كل مظاهر التكريم حتى أطلق سراح الأمير سنقر الأشقر وسلمت القلاع لنواب السلطان الظاهر، فأطلق سراح الرهائن وعادوا إلى أهليهم[2]، إلاّ أن السلطان الظاهر بيبرس ترك قلعة بهسنى للملك هيثوم الأول على سبيل الاقطاع، بعد ان استجار الملك بالأمير سنقر الأشقر لكي يتوسط له لدى السلطان الظاهر لترك القلعة تحت سلطته[3].

استقر الصلح بين الطرفين وساد الهدوء العلاقات الأرمينية - المملوكية، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال محاولات الملك هيثوم الأول في التوسط لإقامة صلح بين أبقا خان بن هولاكو والسلطان الظاهر بيبرس في سنة 669هـ/1270م[4].

اعتلى الملك ليفون الثالث(669 – 688هـ / 1270– 1289م) العرش بعد عودته من الأسر على اثر تنازل والدة عن السلطة له واعتزاله السياسة ليمارس حياة الرهبنة في احد الأديرة بعد سنة من ذلك،فارسل ليفون الثالث رسله في سنة 669هـ/1270م إلى السلطان الظاهر وهم محملين بالهدايا الثمينة والأموال والتحف والتقادم والصنائع مصانعة عن بلاده[5]، كما أن السلطان الظاهر أمر الأمير شمس الدين سنقر الفارقاني بالمناورة بقواته في في شمال الشام ومنطقة حلب دون أن يتعرض لبلاد الأرمن في سنة 669هـ/1270م[6] ، وقد يكون هذا حفاظاً على الهدنة المعقودة مع ملك الأرمن في سنة 666هـ/1267م، ولتذكير ملك الأرمن بأنهم قادرين على غزو بلاده متى ما اخل ببنود الاتفاقية، ومما يدل على حسن سير

(1)Khowaiter, Baibars the First. P. 57 .

(2)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 329؛ المقريزي، السلوك:ج1/ ق2/ص 570.

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ج2/ص 386.

(4)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 339.

(5)ابن أيبك، كنز الدرر: ج 8/ق1/ص 366.

(6) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ج2/ص 467.

العلاقات بين الطرفين إرسال السلطان الظاهر وفداً مملوكيا لتعزية الملك ليفون الثالث بوفاة والده هيثوم الأول [1].

رابعاً: السلطان الظاهر بيبرس والملك ليفون الثالث.

على الرغم من الظروف السيئة التي مر بها الأرمن فقد ظلوا معلقين أمالهم بمغول فارس باعتبارهم القوة التي بإمكانها حمايتهم أمام ضغط المماليك، ولاسيما بعد أن أصبحت في موقف لا تحسد عليه في سبعينات القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي وخير من عبر عن هذه الحالة سيتون[2]، الذي وصفها أنها كانت الحائرة بين أسد المغول ونمر المماليك وذئب الأتراك وأفعى القراصنة، في الوقت الذي أحاط به المسلمون بأرمينية الصغرى، كما يحيط الطوق بالعنق، ويلاحظ انه بعد تنازل هيثوم الأول عن العرش لولده ليفون الثالث اصطحبه إلى بلاط المغول ليقدمه إلى الخان على انه خليفته وتابع لهم، فاستحسن أبقا ذلك واقره ملكا على أرمينية الصغرى، بعد زيارته الثانية لبلاط المغول[3].

اتبع ليفون الثالث سياسة أسلافه في إمكانية التحالف مع المغول والصليبيين ضد المماليك، فأرسل عدة نداءات إلى الغرب لم يجنِ أي ثمرة منها بسبب انهماك الغرب الأوربي بمشاكله الداخلية، ولم ترد الإشارة إلى أية مساعدة غربية سوى أن جماعة خرجوا من الغرب الأوربي، وأرسلوا إلى أبقا خان يطلبون مواعدته من جهة سيس، إلاّ أن هذه السفن لم تصل إذ غرقت بسبب سوء الأحوال المناخية، ولم يذكر عن السفن الباقية أي خبر[4].

أما على النطاق الداخلي فقد عمل ليفون الثالث على إعادة بناء البلاد بعد الضربة المملوكية المدمرة في سنة 664هـ/1265م وزلزال سنة 668هـ/1269 ونجح في ذلك، ولاسيما

(1) انطوان خانجي، مختصر تواريخ الأرمن (مطبعة دير الآباء الفرنسيسكانيين، أورشليم (القدس)، 1868م)، ص 244.
(2) A History of the crusades: vol. II/ p. 658.
(3) ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق اللبنانية، 1956: ع 50/ص 148.
(4) المقريزي، السلوك: ج1/ ق2/ص584.

إعادة تأهيل ميناء إياس الساحلي[1]، فأصبح هذا الميناء مركزاً تجارياً نشطاً[2] ولاسيما بعد أن تم منح التجار الأوربيين امتيازات خاصة لهم فيه سنة 670هـ/1271م[3].

غير أن سكوت المماليك عن هذه الأعمال لا يعني غض الطرف عنه، ولاسيما بعد قيام الأرمن من أهل كينوك المتحكمة بالطرق المؤدية من الشام إلى أرمينية الصغرى بالاعتداء على التجار والقصاد، فأرسل السلطان الظاهر إلى الملك ليفون الثالث يحذره من هذه الأعمال التي تعد خرقا للهدنة فلم يبال ليفون الثالث بذلك. لذلك قرر السلطان الظاهر معاقبته فاسل قوة على رأسها الأمير حسام الدين العينتابي سنة 671هـ/1273م فانزل بهم ضربة موجعة بالقرب من طرسوس وعاد محملا بالغنائم[4]، ولم يكتف السلطان بذلك بل أرسل حملة ثانية في سنة 673هـ/1274م [5]، وبتحريض من معين الدين البروانة صاحب سلاجقة الروم [6]، الذي ضاق ذرعا من اعتداءات المغول على بلاده فاسند أمر هذه الحملة إلى الأمير قلاوون الألفي وبيلبك الخازندار، فسار بالجيوش وحملوا المراكب على البغال ليتمكنوا من عبور انهار أرمينية الصغرى[7].

لم يكد يستولي الجيش المملوكي على مدينة المصيصة حتى لحق بهم السلطان الظاهر فدمر المدينة واحرق قصور ملك الأرمن[8]، وأرسل فريقاً آخر إلى إياس فنهبوا واحرقوا وقتلوا عدداً كبيراً من الأرمن وفر الباقون الذين يقدر عددهم بألفي شخص بين ارميني وصليبي، وعلى الرغم من نجاتهم من المماليك، إلا أنهم لم ينجوا من البحر فغرقت سفنهم التي كانت محملة بأكثر من طاقتها[9].

---

(1) المقريزي، المصدر نفسه: ج1/ ق2/ص 578؛
Lang, Armenia, p. 207.

(2)Setton, A History of the crusades: vol. II/ P. 655 .

(3) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ص 27.

(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 417؛ خانجي، مختصر تواريخ الأرمن، ص243.

(5) عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: احمد حطيط (مطابع مركز الطباعة الحديثة، بيروت: 1983م)، ص 106؛ اسطفانوس الدويهي، تاريخ الأزمنة (المطبعة الكاثوليكية، بيروت: 1951م)، ص 139؛ الحريري، الأخبار السنية، ص 377؛
Der Nersessian, The Armenians , p. 49 .

(6) المفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والعقد الفريد في تاريخ ما بعد ابن العميد، تحقيق: بلوشيت (د.م، باريس: 1932م): ج2/ص 225؛ المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص 617.

(7)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 434.

(8)أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر: ج4 / ص9؛ الذهبي، دول الإسلام (المطبعة الوطنية القطرية، الدوحة: 1988م): ج2 /ص175 - 176؛ ابن خلدون، العبر: م 5/ص 391.

(9)المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص 617-618.

عادت القوات المملوكة وعلى رأسها السلطان الظاهر إلى أنطاكيا بعد أن غنموا كثيراً[1] وبلغت خسائر الأرمن في هذه الحملة عشرون ألف قتيل[2]، واسر عشرة آلاف رجل من جند الملك ليفون الثالث[3]، وعلى الرغم مما حل بالأرمن على أيدي المماليك لم يهب حلفاؤهم المغول لنجدتهم فقرر السلطان الظاهر تسديد ضربة لمغول فارس ليثبت لهم ان حلفاؤهم المغول قد أصبحوا عاجزين عن حماية أنفسهم وفعلا توجه بحملة عسكرية ضدهم في سنة 677هـ/1277م وحقق نصرا عليهم في معركة الابلستين حيث قتل فيها أكثر من ستة آلاف مغولي وتم احتلال قيصرية وجلس السلطان الظاهر على عرش السلاجقة إتباع المغول وخطبَ له على منابرها[4].

كانت هذه الحملة خاطفة وسريعة ولا تقل أهمية عن الحملة الأولى، حيث كانت مكملة لها، فجمدت الأرمن وأبعدتهم عن سوح القتال، فقد التزموا الهدوء تجاه المماليك خشية إثارتهم مرة أخرى، ومع ذلك عاود السلطان الظاهر غاراته على أرمينية الصغرى في سنة 676هـ/1277م، وصالحه الملم ليفون الثالث على التنازل عن الحصون والقلاع التالية دربساك ودركوش وتلميش وكفردنين ورعبان ومرزبان[5]، فضلاً عن القلاع السابقة في الهدنة الأولى مع الملك هيثوم الأول، وبقي ملك الأرمن خاضعاً للسلطان الظاهر حتى وفاته سنة 676هـ/1277م.

(1)ابن العماد، شذرات الذهب: ج 5/ص 340.
(2)ل.أ. استارجيان، تاريخ الأمة الأرمنية (مطبعة الاتحاد الجديد، الموصل: 1951م)، ص 232.
(3) مروان المدور، الأرمن عبر التاريخ (منشورات دار الحياة، بيروت: 1982م)، ص 238؛ خانجي، مختصر تواريخ الأرمن، ص 243؛
Sanjian, The Armenian, Communities in Syria, p. 14.
(4)ابن أبي الفضائل، النهج السديد: ج2/ص 259.
(5)المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص 638؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج7 / ص 186.